

وَقْفَةٌ تَبْصُرُ

سُئِلْتُ عَنِ السَّعَادَةِ يَوْمًا، فَقُلْتُ: السَّعَادَةُ أَنْ تَكُونَ قَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْعُمَرِ عَتِيًّا، طَوَيْتَ مَا يَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ عَامًا، وَأَنْتَ تَنْعَمُ بِرَاحَةِ الضَّمِيرِ، سُئِلْتُ: وَكَيْفَ تَكُونُ رَاحَةَ الضَّمِيرِ، فَقُلْتُ: هِيَ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَى الْوَرَاءِ فَيَغْمُرَكَ شُعُورٌ بِأَنَّكَ فَعَلْتَ كُلَّ مَا كَانَ يَجِبُ أَنْ تَفْعَلَ، وَلَمْ تَفْعَلْ شَيْئًا كَانَ يَجِبُ أَلَّا تَفْعَلَ. عِنْدَ ذَلِكَ لَا تَخْشَى أَنْ تَلْقَى رَبَّ الْعَالَمِينَ فِي أَيِّ لِحْظَةٍ، وَأَنْتَ رَاضٍ عَنِ قَدْرِكَ وَمَا قَسَمَهُ لَكَ فِي حَيَاتِكَ. فِي الْقِنَاعَةِ أَيْضًا سَعَادَةٌ.

إِمْتَحَنَنِي رَبِّي، إِذْ آتَى إِلَيَّ مَسْئُولِيَّةَ الْحُكْمِ فِي بَلَدِي فِي أَحْلَاكِ الْأَوْقَاتِ: زَمَنَ الْقَتْلِ وَالتَّفْجِيرِ وَالنَّهْبِ وَالخَطْفِ وَالتَّهْجِيرِ، وَأَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى أَنْ يَدِي لَمْ تَنْعَمِ فِي حَدِيثٍ مِنْهَا، وَأَنْ فِكْرِي لَمْ يَنْلُوثْ بِخَاطِرٍ مِنْهَا فِي لِحْظَةٍ مِنَ اللَّحْظَاتِ. أُبَيِّتُ تَوْقِيعَ حُكْمِ بَاعْدَامِ جَانِبَيْنِ إِثْنَيْنِ، لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْقَتْلِ هُوَ فِي نَظْرِي تَمَامًا كُفْعَلِ الْقَتْلِ، فَلَمْ أَشَأْ أَنْ أُسَاوِيَ نَفْسِي بِالْجَانِبِ فَأَغْدُو فِي مَنْزِلَةِ الْقَاتِلِ، ثُمَّ إِنَّ الْإِعْدَامَ لَيْسَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ عُقُوبَةٌ، إِذْ لَا يَحْيَا الْمَحْكُومَ بَعْدَهُ لِيَنْدَمَ عَلَى فِعْلَتِهِ، وَالنَّدَمُ هُوَ فِي وَاقِعِ الْحَالِ أَقْصَى الْقِصَاصِ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

كَذَلِكَ لَمْ أُحْرَضْ عَلَى قَتْلِ أَحَدٍ وَإِنْ عَاطِفِيًّا، فَلَمْ أَغْتَبِ يَوْمًا لِقَتْلِ حَتَّى عَدُوٍّ. مَعَ ذَلِكَ لَمْ أَدْعُ يَوْمًا إِلَى الْإِسْتِكَاةِ إِلَى ظُلْمٍ أَوْ اعْتِدَاءٍ، فَكُنْتُ أَدْعُو إِلَى الْمُمَانَعَةِ، إِلَى الْمُقَاوَمَةِ السَّلِيمَةِ لِلظُّلْمِ وَالْجَوْرِ مَا أَمَكَّنَ، وَأَتَفَهَّمُ دِفَاعَ الْمَرْءِ عَنِ

نفسه وعرضه وبنيه في وجه عدوانِ غاشِم. هكذا فهِمت انتفاضة شعوبنا على الإستعمار والاستغلال والاحتلال، وهكذا فهِمت ثورة الشعوب على حُكّامها المُستبِدِّين الظالمين، وهكذا فهِمت مقاومة لبنان إحتلال أرضه، وهكذا فهِمت انتفاضة الشعب الفلسطيني على العدوان والطغيان والعربدة، لا بل هكذا أفهم تمرد المواطن العربي على أنظمة الكبت والقمع. ولكنني أرى في الطفولة عنواناً للبراءة، فما تقبّلت نفسي إزهاق روح طفل أياً تُكن هويته. إن إزهاق أرواح الأبرياء ينبغي أن يكون خطأً أحمر يلتزمه المناضِلون الأبرار.

ولم أتوان إبان وجودي في الحكم عن السعي إلى وقف الاقتتال في لبنان وبعث الوثام بين أبناء الشعب الواحد. لا بل لم أشعر يوماً أنني كنت، فكراً أو وجداناً، شريكاً في الاقتتال الذي كان يدور على الساحة اللبنانية. وقد أدانني شركائي في الحكم في غير مناسبة على وقوفي يوماً في وجه أمرٍ يُصدره مجلس الوزراء للجيش في جانبنا بالهجوم على الجيش في الجانب الآخر من المواجهة يوم كان الانقسام سيد الساحة، فطالبت في مجلس الوزراء بالتريث والنظر في اجتراح بدائل سلمية للحسم العسكري حقناً للدماء. فأخذ هذا الموقف على غير محمّله وتذرع به شركائي في الحكم آنذاك للتنديد بي.

مُجرماً كان هتلى إذ قضى بإفناء اليهود في بلاده، ومُجرماً كان رئيس أميركا إذ قضى بإلقاء قنابل نووية فوق هيروشيما وناكازاكي في اليابان في الحرب العالمية الثانية، ومُجرماً كان صدام حسين إذ شنّ حملات إبادة بالأسلحة الكيماوية ضد المنتفضين عليه من شعبه، ومُجرماً كان رئيس أميركا، وكذلك رئيس وزراء بريطانيا، إذ افتعلوا حرباً داميةً مُدمرةً ضد العراق، ومُجرماً كان كل زعيم صهيوني قاد عدواناً غاشِماً في فلسطين، لا بل ضدها، مُمعناً في شعب آمن قتلاً وتشريداً وتنكيلاً. لا بل مُجرم هو كل حاكم بطاش يُمارس القمع والعسف على شعبه، ومُجرم هو كل حاكم في أيّة دولةٍ تختزن أسلحة الدمار الشامل في ترسانتها. وهذا الحكم لا يقتصر على الدول الصغرى دون الدول الكبرى، كما يشاء لنا المُتسلّطون على العالم أن نرى، بل هو ينطبق على الدول الأقوى قبل الأضعف.

وأنا أعتبر كل من أسهم في إنهاء الحرب اللبنانية من قريب أو بعيد

صاحب فضل مشهود، ليس وطنياً فحسب بل إنسانياً كذلك، وأحمد الله على أنه كان لي إسهام، مهما ضؤل، في إنهاء تلك الحرب من موقعي آنذاك في سدة المسؤولية. وأعتبر أن كل من يحاول العودة إلى إثارة النزاعات والضغائن بين أبناء الشعب الواحد، سواء بقلمه أو لسانه أو قراره أو سلوكه أو حتى نواياه، إنما هو آثم مُدان، ضالِع في كل ما قد ينجم عن فعلته من ظلم أو عدوان أو إساءة. كذلك هو كل من يُسهِم بدور، مُباشر أو غير مُباشر، في استيارة العصبية الفئوية، المذهبية منها والطائفية والعنصرية. سامح الله أولئك الذين يُمارسون السياسة في لبنان ولا يتورعون عن استغلال العصبية الفئوية مطية للوصول إلى مآرب آنية عارضة غير عابئين بما قد يترتب على فعلتهم من عواقب على حاضر المجتمع ومستقبله.

لستُ معصوماً عن الخطأ. معاذ الله أن أدعي ذلك. كنت مُعرضاً لارتكاب أخطاء كثيرة في الممارسة اليومية في سدة المسؤولية. قد أكون قد أخطأت حتى على مستوى تصريف أعمال الدولة، من مثل الموافقة على قرارات التعيين أو الترفيع أو التكليف أو الملاحقة أو الصرف من الخدمة. جلّ من لا يُخطيء. إلا أنني مرتاح الضمير إلى أنني لم أفعل ذلك عابداً مُتعمداً، أو من دون سند كنت أعتقد أنه صائب أو موثوق. إن اجتهد المسؤول فله أجر، وإن أصاب فله أجران.

قد أكون أخطأت، وربما تَماديت في الخطأ، في حَمَلتي على بعض السياسيين. وعُذري في ذلك، وقد لا يكون عُذري مقبولاً أو كافياً في نظرهم، أن هؤلاء أساءوا إلى وطنهم، أو تجاوزوا على الحق في أفعالهم، أو غالوا في إفساد المجتمع في ممارساتهم. ليس عيباً أن يكون المرء ثرياً، ولكن العيب كل العيب في تسخير المال أداة فساد وإفساد. وإن كنت قد أسأت التقدير في هذا التوجّه أو المسلك، فإنني ههنا أعتذر من هؤلاء.

والصفح من سيم الكرام. لم يكن قصدي الإساءة الشخصية بل النهي عن مُنكر. إنما الأعمال بالنيات. هذا مع العلم أن هؤلاء لم يدخروا وسعاً في الإساءة إليّ في حملاتهم الجائرة الشعواء ضدّي طوال وجودي في الحكم، وقد وظّفوا في حملاتهم تلك من الإمكانيات المادية والإعلامية ما لم أكن أملك مثله، فنجحوا في تشويه صورتي وتلطّيح سمعتي بين الناس. ورصيد السياسي